قالت الراويات ..

ما لم تقله شهرزاد

إعداد: هالة كمال

مؤسسة المرأة والذاكرة
THE WOMEN AND MEMORY FORUM

قالت الراويات

ما لم تقله شهرزاد

الكتاب: قالت الراويات ما لم تقله شهرزاد
إعداد: هالة كمال
تصميم الغلاف: هبة حلمي

الطبعة: طبعة أولى
الناشر: مؤسسة المرأة والذاكرة
٨٣ شارع شهاب، المهندسين، القاهرة
رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٠٥/١٦٨٢٧
الترقيم الدولي: ٤ – ١٥ – ٥٨٩٥ – ٩٩٧
طباعة: مطبعة بروموشن تيم، ت: ٣٣٦٧٤٤٩
حقوق الطبع والنشر محفوظة

شكر خاص لمؤسسة ماماكاش (mamacash)

قالت الراويات

مـا لـم تقـله شهـرزاد

الراويات:

أميمة أبوبكر

سحر الموجي

سهام بنت سنية وعبد السلام

سهى رأفت

منى إبراهيم

منيرة سليمان

مها السعيد

هاله كمال

دخلت البنات جميع الحجرات في القصر العتيق يتفحصن المكان ويتأملن سحر الزمان، وما أن وجدن المجلد القديم وعرفن من المخطوط أنه مجموعة حكايات كتبتها زماااان شهرزاد، حتى جلسن جميعا في حلقات يسمعن حواديت الجدات، فحلمن بها وهمسن في أذن جميع الصديقات وكتبن من وحيها هذه الحكايات ..

"ما لم تقله شهرزاد" ..

فتحت سحر كتاب الحكايات فسقطت من طياته رسالة من دنيازاد إلى أختها شهرزاد، فقرأتها سحر على الصديقات في إحدى السهرات:

شهرزاد

سعيدة أنا بقرارك أن تدوني حكاياك اليومية لشهريار. فلطالما ألححت عليك بتنفيذ الفكرة. تذكرتك وأنا أسمع حكاية يرددونها هنا في بلاد الصين عن محاربات فارسات يركبن الخيل ويتدربن على أسلحة الحرب كما الرجال. أحببت أن أخبرك أنني أراك مثلهن. لكن سلاحك كلمات.

دعيني يا شهرزاد أستكمل لك حكاية ماو-تسي الذي يمكنه بالطبع أن يصبح في حكايتك لشهريار محمود أو حسن. يحكون أنه قد أفلت من نخاس قاس شرير بمساعدة محاربات فارسات يسمين أنفسهن "السيف الأبيض"، واستطاب

حسن العيش في قصر المحاربات، يقضي يومه في النزهة والتجوال وأحياناً يقوم بأمور الشراء ومراعاة شئون القصر. وعندما تعود المحاربات من رحلات القنص أو تدريبات القتال يساعدهن ماو-تسي في إعداد الشواء وتنظيم حفلات السمر والغناء.

وكان أن قررت المحاربات السفر لدرء شر ما عن أحد العباد في قرية صغيرة ترقد تحت سفح أحد جبال الصين، فأوصين حسن خيراً بنفسه بعد أن قرر ألا يرافقهن، وأكدن عليه ألا يقترب أحد من أبواب القصر في الركن الشرقي البعيد. قضى ماو-تسي نهاراً واثنين يقاوم الرغبة في الاقتراب، وعندما خانته الإرادة، دلف من الباب ليلاً إلى ممرات وسراديب تنتهي بساحة غناء أرضها ياقوت ومرجان ينعكس عليها فضة بدر قريب. أما أشجارها فحناء وسيسبان. بدا له أنه قد خطا داخل الفردوس. وفي ذهوله لمح سرب نوارس بيضاء كبيرة بحجم الإنسان، حطت الطيور حول

فسقية الماء المنساب، فاختفى وراء أحد الأشجار، وهاله ما رأى ... رأى الطيور تشق جلدها فيسقط الريش وتظهر سبع فتيات حوريات شعورهن بحلكة الليل، بوجههن انعكاس فضة بدر الليلة.

أخذ يرقبهن في لعبهن داخل الماء الذي انشق فجأة عن إحداهن كأنها عروس بحر هاربة من القاع. كان يشع منها شيء خاص .. أهو ذكاء بريق عينيها، أم ضحكتها الرائقة كوجه النهر البريء، أم ذاك الجسد المفعم حيوية يتلوى ويلتف حول نفسه في الماء كأنه جزء من نسيجه الدوار؟ هل عرف تحديداً ماذا شده إليها؟ لكنه وقع في غرامها في الحال. وعندما تركن المكان بعد أن لبسن ريشهن، كانت الفتاة قد طارت بقلبه وتركته في حالة من الحمى. زادت حالته سوءاً عندما لم تظهر الحوريات الطائرات لمدة أيام وأيام كان فيها القمر قد انحسر وغاب.

عندما عادت صديقات حسن المحاربات من مهمتهن لاحظن ما به، وفي حنان سألنه، لكنه جبن عن البوح، فقال: "إن بعدكن عني قد أسقمني وحرمني من الرقاد."

ودأب على التسلل كل ليلة إلى فردوسه المفقود علّ النوارس تظهر. وقد كان. فعندما اكتمل القمر، ظهرن وخلعن الريش، وبدأن في اللعب في الماء. ونفذ ماو-تسي الفكرة التي ظلت تراوده في غيابهن فسرق رداء ريش الفتاة وأخفاه. وعند اكتشاف الفتيات لما حدث فزعن، لكن الفتاة كانت أقلهن فزعاً، بدت فقط على وجهها ملامح التفكير. ولما كان موعد العودة قد آن، تركنها على وعد بمساندة قريبة. وما أن طرن حتى ظهر لها ماو-تسي راكعاً يسألها الزواج.

- وأين ريشي أيها الفتى؟
- في أمان.

قرأت في عينيه التصميم فأظهرت الاستكانة والإذعان، وطلبت منه الاستماع إلى قصته. وعندما قص تفاصيل حكايته مع النخاس قالت:

- غريب أن تسجنني وأنت الذي ذقت طعم القهر والهوان.
- أتسمين هذا القصر سجناً وهذه المعاملة الكريمة قسوة. ما هذا إلا عشق.

أعطته ظهرها، وقالت تحدث نفسها:

لا أفهم
لم يعتقدون
أن العصفور
يأكل ذهباً
يأكل ياقوتاً ولآلي
يستحم بالنبيذ
وينام على فراش
من ريش اخوته
خلف القضبان الحديدية

لم يفهم ماو-تسي إلا عنادها وبطرها على نعمة الله عليها. أخفاها أياماً عن صديقاته المحاربات، ودأب على استرضائها وهي لا تقابله إلا بالصمت. وكان أن نفذ صبره فقرر أن يقطع عليها سكة الرجوع.

أحضر ريشها وهو يصرخ فيها:

- أريدك في الحلال، ألا تفهمين؟

وعندما هم بإشعال عود الثقاب، أخبرته بنبرة هادئة تقطر أسى:

- إن أحرقت هذا الريش فقدتني.

في ثورة إحباطه والهيام، قذف ماو-تسي بشرارة النار فوق الريش فصرخت في الحال. التفت إليها فوجد جلدها يتفحم فأصابته حالة من الذهول والهياج. ارتمى بجسده حول الريش يحاول إطفاءه، وهي تلتف حول نفسها صارخة، ويتقلص جسدها من قسوة الشرار الذي يأكلها. أخذت

تلتف وتدور في اتجاه الريش الأسود الذي يتصاعد منه الدخان.

أفاق ماو-تسي من ذهوله على صقر أسود كبير يصعد إلى السماء وهو يرفرف بعنف الفرار. بينما تفوح من ريش جناحيه رائحة الحريق.

أتعرفين يا شهرزاد، كنت أفكر منذ أيام أن أسماءنا هي أقدارنا بشكل ما. كأن كل كتاب أقرؤه، كل حكاية أسمعها، وكل شخص أحب هو ريشة أخرى أضيفها إلى جناحيّ، الزاد الجديد يدلف إلى دنيا روحي. قدري أن أظل أروي نهمي إلى المعرفة .. ولا أستكفي. وقدرك يا صديقتي أن تحاربي الزمن بالزمن .. شهر-زاد. كلما مر عليك شهر كلما أحرزت نقطة جديدة بحكاياك، ضد الزمن.

مرفق مع هذا المرسال كتابان. واحد لأحد حكماء الصين (كونفوشيوس)، لا أعرف إن كنت قد

قرأت له، والآخر تدوين لبعض أساطير الفراعين.
في انتظار إرسالك لي بكل ما تدونين.

محبتي،

دنيا.

وفي الليلة الثانية بعد الألف حكت منى حكاية تان تان ابن ملك الساسان ...

إسمي تان تان ابن ملك الساسان من معسكر في بلاد العرب بعتني ليه أبويا علشان أتعلم أبقى راجل بعيد عن حضن أمي. كان أول ما علموني طبعا إني أتخّن صوتي، وطبعا لازم أكبّر عضلاتي، وأتعلم المبارزة وركوب الخيل. والأهم إني أتخلص من النظرة الرومانسية اللي في عيني، دي بصراحة تعبتهم قوي، لأ وكمان قلبي الرهيف اللي ما يستحملش يشوف فرخة بتتدبح. بس اللي ركزوا عليه قوي كان الستات .. طبعا ما أنا حابقى ملك وحيبقى عندي جواري، يعني لازم أكون فحل الفحول، وشوية بشوية بقيت زي ما هما عايزين بالظبط.

وفي يوم من الأيام قابلت واحدة من الجواري قالت لي "أنت باين عليك طيب مش زي بقية الملوك، تعالى أنا حافرجك على حاجة."

ونزلت بي من سرداب سري في القصر من غير ما حد يحس، لمكان كبير وجميل تحت في الحرملك، وشفت فيه إزاي الست بتتعلم تكون ست، إزاي بتتعلم الحب والحنيّة ورعاية الغير، واحترت، أنا حابب صفات الستات، لكن أنا راجل، ومش أي راجل، أنا حابقى ملك، يعني لازم أكون أرجل الرجال.

ولما رجعت لأمي وحكيت لها عن حيرتي، قالت "يا بني مين اللي قال إن الراجل يشخط وينطر ويخوف بنظرته وعضلاته، ومين اللي قال إن الحنية والطيبة مش لازم تبقى من صفات الملوك اللي ربنا ولاّهم على الناس، يراعوهم ويسألوا عنهم؟ يا بني كلنا لازم تكون جوانا الصفات دي، نظهر منها اللي نحتاجه في كل موقف. أنا بس غلطتي إن أنا عمري ما إديتك خبرتي دي قبل كده، كنت وفرت عليك الحيرة، ويمكن تجربة المعسكر دي من أولها، ولكن أوعدك أصلح غلطتي بإني أكون دايما جنبك، مش بس برعايتي

وحناني، لأ كمان بخبرتي وأفكاري. بس أوعى أبوك ياخد خبر لا تبقى حكاية."

وضحكت أمي، ولم أضحك، فلقد رأيت فيها امرأة جديدة رائعة، أراها لأول مرة.

وفي الليلة الثالثة بعد الألف حكت أميمة حكاية الأميرة هانم وزوجها ابن الأكابر:

يحكى أن الأميرة هانم كانت تُعرف في البلاد بالجود والكرم، والتقوى والورع. كانت حكيمة، بل كانت ست الحكيمات، بيدها رباط بجانب الكعبة تحسن فيه إلى الأرامل والمطلقات والضعفاء والمتروكين. وفي يوم من الأيام وجدوا الأميرة هانم في هم وحزن وكرب؟ قال الناس إنها أضرّت،* وقال البعض بل مرضت. ولم يفقه أحد سبب ما جدّ من أمرها غير أنه قد تغير حالها، وباتت تخرج كل يوم في نفر من خدمها، تصلي عند باب الملتزمة وتدعو بدعاء غريب: أسألك يا الله يا رؤوف بالعباد وفوق كل الأنام، أن أعثر على أفقر وأضعف وأوهن رجل بالمدينة .. أعلمه ما أعرف.

---

* اتخذ زوجها ضُرة لها.

واستغرب الناس كلامها وشاع أمر اختلاطها،* وقال العارفون ببواطن الأمور وتواريخ "حريم الأكابر" إنه حدث مرة في زمن آخر أن حشاشاً للغنم حكى حكايته مع زوجة أمير هذه البلاد، التي حلفت يميناً أن تخون زوجها مع "أحقر" الناس وكانت تفعل هذا كلما ذهب زوجها مع الجواري، لكن دون تغيير أو تبديل في الحال، مرة بعد مرة. وها هي الأميرة جنّت، فلنشكو أمرها لأمير الحجاج وليعلم زوجها ما تنويه.

أتوا بالأميرة والأمير والشحاذ الضعيف الفقير، الذي كان قد لبى نداء الأميرة. وعند قاضي القضاة، انكشف كل شيء وحكت "هانم" قصتها: تنسون أني ست الحكيمات .. تنسون أني ربّة ذلك الرباط.

والقاضي يسأل: هل تخونين زوجك مع هذا الشحاذ؟

وترد الأميرة: نعم .. ولا !

---

* جنونها (كما كان يرد استخدام الكلمة في العصر الوسيط).

- ما معنى هذا الكلام؟

اسمعوا قصتي: زوجي الأمير وأنا كنا مرة قاعدين في حديقة البيت، وقام من جانبي وغاب مدة، ولما استأخرته وذهبت إلى المطبخ، وجدته في عناق مع جارية غلبانة لا تملك من أمر نفسها شيئاً. صعبت عليّ هذه المسكينة، وأنا في رباطي الكثيرات مثلها .. غُرر بهن وتُركن، ثم غضبت لنفسي، هل سأصبح أنا الأخرى في عداد المخدوعات؟

وسمعت نفسي تحلف يميناً أن أخونه مع أضعف وأغلب مخلوق في المدينة، ونفسي الأخرى تقول لي: ما حد أضعف منك يا أميرة .. حيلتك ضعيفة .. في السر .. مثل حريم الأكابر زمان مع حشاش الغنم، وهل تحاربين الحرام بالحرام؟ ونفسي الغاضبة ترد: ولكني معذورة، دمي يحترق وأعصابي تشتعل، بعدها سأهدأ فلا يقتلني الألم المكتوم، وأفعل به فعلته بي، ثم

يعود إليّ. وماذا عساي أن أفعل غير هذا؟ ونفسي الأخرى لا تفتأ تقول: ومن قال أن تتحملي الألم المكتوم، أخرجيه، ولكن ... !. فلنخرج إذن نبحث عن رجل فقير معدم.

وهكذا سرت في البلاد أنا ونفسي نبحث عن واحد بهذه الصفات، حتى وجدناه. وها هو أمامكم شحاذ فقير معدم. ولكن ماذا أفعل الآن يا سيادة القاضي، هل أخون زوجي معه مثل الأميرة والحشاش في سالف الزمان وقد هدأ بالها وأشفت غليلها، ولكن ما صلح حال زوجها؟ أم أكتم ألمي فيمرضني ويقتلني رويداً، وأصبر على من لم يصبر على شهوته حتى يرجع زوجي عن فجوره مُعافى فيجدني عليلة أصابني السقم والهم؟

تعجب الحاضرون من هذا الكلام ومن الأميرة التي شرحت الأمر في صراحة. لم يعرف القاضي

كيف يجيب، وتلعثم الزوج وأراد الإعتذار، فهم يُقبل الأرض بين يديها، ويتذلل لها حتى يصالحها. ولكن الأميرة هانم عقدت العزم أن ترحل مع الشحاذ الفقير تعلمه ما تعرف .. كما قالت. فأخذته في رباطها تطعمه وتكسيه وتعلمه فضل الحياء من الله.

وفي الليلة الرابعة بعد الألف بعدما سمعت مها حدوته ورا حدوته تحكي حكاية ست .. ست الكل .. ست الحسن .. ست الملك .. ست طويلة .. ست قصيرة .. ست طخينة .. ست رفيعة .. كلها حكايات ستات .. حكت مها حكاية ست الملك ومسك الجرار:

ست الملك في يوم قررت تجمع كل الجواري إللي في قصرها عشان تعرف أمور عصرها. ولما جم كلهم قالت لهم: "أنا عايزه حاجه من كل واحده .. عايزه كلمة وعايزه بسمة .. عايزه كل واحدة تقوللي كل اللي في نفسها."

ضحكوا البنات وقالوا بينهم وبين بعضهم: "الظاهر إنها اتجننت."

وفي وسط الهمسات والضحكات قامت واحدة على استحياء، واحدة من الجواري شكلها من أصل عجماني، وقالت: "أنا بأحلم بطبق ملوخية."

ابتسمت ست الملك وقالت: "ده حلم سهل خالص."

بصوا لبعض الجواري، واتأكدوا إنها اتجننت: "إزاي حنعمل ملوخية؟! ولما الحاكم بأمر الله يشم التقلية؟"

لما الجواري اتشجعوا، قامت واحدة أصلها ثورية قالت: "أنا بأحلم برحلة تحت القمر من غير ما توقفني الدورية."

ابتسمت ست الملك وقالت ده كمان حلم سهل، لكن مش حيحصل غير في ١٤ من الشهر.

وللمرة التانية على التوالي أثبتت ست الملك فقدانها لعقلها، وبدأت الجواري تهمس:

"يا حرام .. ما هو من اللي عمله فيها أخوها المفتري."

"يا حرام .. بس أصلها لو كانت اتجوزت."

واترددت كلمة "يا حرام" بعدد الستات، فقررت ست الستات كبيرة الجاريات تنهي جميع المهاترات وقالت:

"يا ست الملك يا مولاتي، انتي ليه عايزانا كده نهاتي وانت عارفة إن الملك لصاحب الملك وإحنا يا دوب جواري، لا حناكل ملوخية ولا نمشي في السهرية."

واتدورت للجواري وبحزم وشدة رجولية قالت: "يللا يا بنت انتي وهي، روحوا البسوا واتزوقوا وكمان بالمسك اتريحوا."

وقفت ست الملك وقالت: "لا يا ست الستات، من النهارده حنحط خطة استراتيجية لتغيير كل الأمور ديه .. المهم في الآخر كلنا ناخذ حرية."

همست ست الستات في ودن ست الملك وقالت: "إيه هي الخطة التراجيدية؟"

- حنحكي حكايات.
- حكايات؟؟؟
- أيوة حنحكي حكاية عن القمر وحكاية عن القدر وحكاية عن الحكايات. وكل يوم بعد

المغربية ننزل نتمم على الدورية، ولو حد كلمنا حنقول دي أوامر ملكية!

وأول حكاية كانت حكاية الملوخية، كتبتها ست أبوها وحبشتها بشوية كلمات أحلى من الكسبرة والبهارات. وتاني حكاية كانت عن ست البيت اللي طلعت الغيط. وتالت حكاية كانت عن القمرية ونجوم الليل.

وحكاية ورا حكاية تنسج أحلام الصبايا، وكل ليلة بدل ما كانوا يلبسوا ويتزوقوا وبالمسك يتريحوا، كانوا يقعدوا ويحلموا ويخططوا ويلموا المسك كله في الجرار.

ولما دول اتحرروا وقدروا عن نفسهم يعبروا، فكرت ست الملك وعقدت اجتماع طارئ مع كل الجواري، وقالت: "حنعمل إيه في بقية الجواري اللي قاعدين في الحواري ولا حتى يقدروا يفكروا." ست الستات همت أوام وقالت: "نلمهم ونزود

أحلامنا بحلمهم، وكل ما كانت أعدادنا كتيرة كل ما كانت أحلامنا كبيرة وقوتنا تكتر."

ويوم ورا يوم تيجي جارية جديدة لحد ما وصلوا ٨٠٠، وكلهم ستات أقوية لما ينزلوا بالليل كانوا يرعبوا الدورية. وبعد ٥٥ سنة وجواري ست الملك عن العيون متدارية، بيقولوا إنهم كلهم ستات مستحية.

وماتت ست الملك وسابت لنا التركة ديه: مجموعة من الجواري والجرار مليانة مسك الحكاوي، ملتها ٨٠٠ جارية يعرفوا طعم الحرية، كلهم ستات عصرية.

ولما جاءت الليلة الخامسة بعد الألف تذكرت أميمة حكاية العفريتة المخيفة أم شعور مميتة:

كانت هناك عفريتة، مرعبة ومخيفة، أو هكذا قالوا في حواديت زمان عن الإنس والجان. قالوا كذلك إن شعرها حيّات وعقارب، وإنها تسكن كل بيت وكل غيط. تطل برأسها على الناس في كل الأمكنة وكل الأوقات، فيجزعون من منظر ثعابين شعرها المسدلة على كتفيها ويصرخون: "العفريتة أم شعور مميتة .. اطردوها .. اطردوها!! عفريتة البيت والغيط".

ومما قيل كذلك إن شطار القرية والمدينة ذات يوم قرروا أن يخلصوا الدنيا من شرها وشعرها، فلما ظهرت لهم بالبيت مرة، أمسكوا برأسها – وفي الحقيقة لم يكن هناك في الأصل حيّات أو عقارب: مجرد ضفائر مجدولة على الجانبين. ولكن شطار القرية والمدينة رأوا الضفائر

ثعابين ملتفة يجب أن يصارعوها ويصرعوها، لفوا شعورها على أياديهم وقالوا في صوت واحد مهيب: "إياكِ أن تسكني هنا بعد اليوم".

هربت "العفريتة أُم الضفائر المميتة" إلى الغيط الفسيح ربما تنام وتستريح. فرح الشطار بنصرهم وتطلعوا إلى نصر جديد، جروا إلى الغيط، ولما ظهرت لهم أيضاً هناك "العفريتة المخيفة"، ضفائرها أو ثعابينها ممدودة في الهواء، لفوا شعورها على أياديهم وقالوا في صوت واحد مهيب: "إياكِ أن تسكني هنا بعد اليوم".

هربت "العفريتة أم الضفائر المميتة" إلى صفحات كتاب الشيخة رشيدة، ذات الآراء السديدة قارئة الكتب القديمة والجديدة. ظهرت لها العفريتة على صفحة الكتاب الذي تقرؤه وتغلغلت ضفائرها في السطور والصور.

فردت الشيخة رشيدة شعر العفريتة بيديها وقالت في صوت هادئ رخيم: "ألا تسكنين هنا معي حيث أصل الأشياء، منبعها ومنتهاها. لستِ

في كتابي هذا عفريتة أو مخيفة أو مميتة، فقط إنسية قوية عتيدة، وشعرك ليس بحيات وعقارب، فقط ضفائر مجدولة من أعمال وأحمال وهموم. تسكنين هنا في كتابي لتظهري منه بعدها على الناس، هؤلاء الذين طاردوك في البيت وفي الغيط.

وتسمعني الدنيا أقول لك: إياكِ أن تختفي بعد اليوم.

ولما كانت الليلة السادسة بعد الألف حكت سهام بنت سنية وعبد السلام قصة همس لها بها واحد من المماليك قابلته في نص شهرزاد العتيق، ذكر فيها تاريخ ميلاد "الأوراق الصفراء".

قال المملوك:

أنا كنت قاعد في الشمس، لا بي ولا علي، آهه .. زي كل يوم .. باجلي وشّي لحسن يمكن السلطان يحب يتملى بطلعتي البهية .. وأجلي سيفي لربما يطلب مني أطلع على أعدائه بحملة تأديبية.

وإذ فجأة .. دخل عليّ الحاجب وهو بيترعش ومتلخبط، وقال لي: "القاضي مجتمع بالسلطان والوزير وطالبينك". إترعبت .. وحسست على رقبتي .. أصل لو كان السلطان لوحده كانت تبقى الدنيا أمان، ولو كان معاه الوزير بس .. ما يضرش قوي .. لكن القاضي!!!

يا ترى يا هلترى بلغ السلطان مثلاً إني فتحت الأوضة اللي مانع أي حد يقرب منها؟ لأ وإيه، شفت الغزالة الشاردة اللي مخبيها فيها. قوام إيه!! وعيون إيه!! حاجة تحل من على حبل المشنقة. مرة والتانية ولا من شاف ولا مين دري، بس مش كل مرة تسلم الجرة، ويظهر المرة دي حيقع السيف على رقبتي.

دخلت وأنا مرعوب .. لقيت معاهم في المجلس شابة أجمل من غزالة السلطان. شابة من بنات التتر .. أمها الشمس وأبوها القمر .. مملوكة للوزير ضمن حريمه، لكن ما يعزهاش عن السلطان .. والسلطان في حبها هيمان .. وحالف لا يطفي شوقه ليها في التو والآن. ولإنه فيه حتة في ركن عقله خايفة من نار الجحيم، بعت يطلب مشورة القاضي العظيم.

أول ما دخلت المجلس .. البنت القمورة ملكت قلبي .. وبقيت أبص لها بنص عين، وبنص العين التانية أبص على القاضي ومستني مصيبة

تطلع من بقه. لكن القاضي كان مشغول بكتابة حاجة في ورقة صفرا. وبعد ما كتبها قال للسلطان: "لقيتها يا مولاي. حليت لك المسألة".

وقرا اللي كتبه:

إذا كانت الأنثى تحت ذكر حر عاقل رشيد - سواء بعقد نكاح أو بملك يمين - وطلقها، لا يحل أن ينكحها ذكر آخر حر عاقل رشيد حتى تستوفي عدة الاستبراء. لكن يحل أن يعقد عليها عبد أو طفل أو مجنون، حتى دون استيفاء عدة الإبراء، لأن السيد أو الأب أو الولي يمكنه الحجر على العبد أو الطفل أو المجنون وتقييد تصرفاته وحبسه عن أن يطأ الأنثى موضع العقد. فإذا طلق العبد أو الطفل أو المجنون تلك الأنثى، يحل لأي ذكر حر عاقل رشيد أن ينكحها فورا، بشهادة رجل واحد حر عاقل رشيد على أن مطلقها العبد أو الطفل أو المجنون لم يطأها.

وبعدين ختمها بختم الإمامة، وحطها في سيالة جبته.

الفار لعب في عبي لما سمعت الكلام الملخبط اللي قاله القاضي، ولو إني ما كنتش فاهم منه حاجة. لكن يا خبر!! القاضي بجلالة قدره إتلفت للسلطان وقال له: "لقد عقدت نكاح تلك الجارية بذاك المملوك."

بقيت مش مصدق وداني، ولولا الملامة لكنت رقصت. بالذات إني لما بصيت في وش الشابة لقيته نوّر بالقبول، وغمزت لي بعينها. هو الواحد حايعوز إيه أكتر من كده؟! لكن في ثواني .. القاضي إتلفت لي، وقال لي من طرف مناخيره: "آمرك أن تطلق الجارية في التو واللحظة."

العفاريت إتنططت في وشي، ورديت: "عليّ الطلاق بالتلاتة ما أنا مطلقها." أتاري الحكاية فيها إنّ، والسلطان عينه كانت زايغة على جارية الوزير، ومش قادر يستنى ويصبر على نفسه كام شهر حسب الشرع اللي نعرفه.

بص لي القاضي باستصغار وهو منفوخ وقال لي: "يعني جيت في جمل؟ دي مسألة ما فيش أبسط منها .. ملكه لها يا مولاى." يا خلق هوه!! دا سوا ملكني لها رسمي ولا ما ملكنيش، البنت ملكتني فعلاً بنظرة القبول في عينيها. يظهر يا جدعان إن القاضي ده طيب وأنا كنت ظالمه.

أتاريني جاهل وساذج .. والمُلك الرسمي اللي بيتكتب بالحبر له حكم غير المُلك الفعلي اللي بيتكتب بالقلب. وما كنتش واخد بالي من الفخ المنصوب بين الحُكْمين. أول ما ختم القاضي باليمين على صك تمليكي لحبيبتي، ختم بالشمال على صك تفريقي عنها وفسخ عقد جوازنا. وكتب في ورقة صفراء تانية:

النكاح رق ولا يصح أن ترق سيدة لرقيقها .. فإذا ارتقت المرأة منزلة السيادة وهبط عنها الرجل، لا يصح زواجهما.

قلبي انكسر .. والدموع غطت عيوني .. لكن فيه إيه في إيدي؟ أنا مملوك ولي حدودي. لكن اللي فوقني من غرقتي، إن البنت الساحرة زعقت في الجميع، لا خافت من سلطان ولا وزير ولا قاضي، وقالت: "هو حر وأنا حرة .. إطلعوا كلكم بره" .. وجمعت إرادتها في إيدها، وبصوابع بتضوي بشمس وقمر وفضة ودهب شاورت على كل واحد منهم وهي بتقول: "بره .. بره .. بره." وفضلت تشاور بثبات وهما يتراجعوا، لحد ما خرجوا بره القاعة.

لكن اللي البنت ما أخدتش بالها منه، إن القاضي خرج، والأوراق الصفراء اللي كتب فيها أحكامه محطوطة في سيالة جبته.

وفي الليلة السابعة بعد الألف استأنفت منى نقل حوارات شهرزاد وشهريار الرومانسية:

قالت شهرزاد:

- بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد والكلام السديد والعمر المديد والـ ...

قاطعها شهريار قائلا: ما كل هذا يا شهرزاد، ادخلي في الموضوع.

ردت شهرزاد: إن إطالتي في المقدمة ما هو إلا تعبير عن خوف من الدخول في موضوع الليلة يا مولاي.

- زدت من شوقي يا شهرزاد، هلمي .. ما موضوع الليلة؟
- حكاية الليلة عن الحب يا مولاي.
- جميل، ولماذا تخافين؟ أنا من أكبر مؤيدي الحب رغم ما يشاع عني، بل أنا شخص

رومانسي للغاية، وهذا سبب مأساتي ..
دعك مني وابدأي حكايتك.

- أنا أقدر رومانسيتك يا مولاي وسوف أحكي عن شخص رومانسي آخر ولكن بالطبع ما كان له أن يبلغ ما لمولاي من مكانة ولا أن يعبر عن رومانسيته كما عبر مولاي .. O.K.، Ready؟
- ما معنى ما قلته الآن يا شهرزاد؟
- أوه، Sorry ، أعني هل مولاي مستعد لسماع قصتي؟
- بالطبع، تفضلي، هل سأنتظر كثيرا؟
- كلا يا مولاي ..

فقد قيل إن شابا وسيما اسمه حسن وقع في حب إحدى الجنيات عندما رآها تستحم في مياه البحيرة وقد خلعت عنها ريشها، فرأى ليونة قدها ونقاء لونها فما كان منه إلا أن سرق الريش وأخفاه حتى يجبرها على البقاء معه.

- ولكـن هـذا لـيس مـن المـروءة فـي شـيء يـا شـهرزاد .. هل حسـن هذا شـخص مهـذب؟ تذكري أنك قد قارنته بي أنا شـخصيا.
- عفوا يـا مـولاي، ولكـن عـذره أنـه قـد وقـع فـي الحب.
- هذا حب تملك يا شـهرزاد، ولكن أكملـي لنـرى ماذا سـيفعل هذا الحسـن.
- عنـدما خرجـت الجنيـة مـن المـاء وبحثـت عـن ريشـها فلم تجده، جلـست علـى الـشاطئ تبكي وتلطم خديها وتتوسـل لمن سـرقه أن يرده، حتى ظهر لها حسـن وأراهـا الـريش .. فتوسـلت إليـه أن يعطيـه لهـا لكـي تغطـي جـسدها وتـذهب إلـى وطنهـا فـي مملكـة الجن. ولكن بلا جدوى. فقد صرح لها حـسـن بحبه لهـا ورغبتـه فـي إبقائهـا بجانبـه لكـي يتزوجها.

قالت الجنية: "لكنني لا أريد الزواج الآن، وأنـا لا أعرفك يا سـيدي، أرجـوك اعطنـي ريـشـي وأعـدك

أنني سأفكر جديا في هذا الموضوع، وهي فرصة لك أنت أيضا، فأنت لا تكاد تعرف عني غير جسدي، فهل هذا حب؟"

رد حسن: "بل أحب ما هو أبعد من جسدك، أحب روحك ووجدانك. وأعتقد أن من يملك لك حبا سوف يجبرك على حبه، ولهذا سأحرق هذا الريش حتى أضمن وجودك الدائم بجانبي يا حبي الوحيد."

صمتت الجنية برهة ثم قالت: "أمرك يا سيدي، ولكن دعنا على الأقل نحتفل بزفافي إليك بأن نشرب شراب فاكهة هذه الشجرة".

- قاطعها شهريار قائلا: آه، أتوقع أن يكون هذا الشراب مقلبا من مقالب النساء.
- ردت شهرزاد: أصبت يا مولاي، فقد كان لشراب هذه الفاكهة قدرة على القضاء على قوة الرجال. وهذا ما حدث لحسن.
- لكن هذا عمل شرير، لا يتوازى مع ذنب حسن.
- هذا ما ظنه حسن أيضا يا مولاي.

لكن الجنية ردت: "لقد قلت إنك تحبني لذاتي وليس لجسدي يا سيدي، وأنا أيضا سأتزوجك لذاتك وليس لجسدك، فأين المشكلة؟"

- هذه الجنية تدعي البلاهة، فلا يوجد عند الرجل ما هو أغلى من رجولته.
- ولا يوجد عند المرأة ما هو أغلى من حريتها وكرامتها يا مولاي، وقد أهان حسن الجنية وسلبها حريتها.
- طبعا تتعاطفين معها لأنها امرأة مثلك، يا شهرزاد.
- بل أتعاطف مع الحرية وكرامة الإنسان يا مولاي، رجلاً كان أو امرأة.
- ولكن هذا يعني أنك لا تتعاطفين مع موقفي من النساء حتى بعد ما حدث لي من إحداهن.

ابتسمت شهرزاد ابتسامة خبيثة ولم تجب.

- O.K. .. O.K.، أليست هذه كلمتك؟ اخلدي إلى النوم الآن فقد أذن الديك.

- ولكنني لم أسمعه يا مولاي، والليل ما زال في أوله.
- لقد سمعته أنا. حكاية الليلة ليست شيقة على أية حال. تصبحين على خير يا شهرزاد.
- ولكن يا مولاي ..
- اتكلي على الله يا شهرزاد حتى لا أفقد رومانسيتي.
- O.K. .. O.K.

وبعد شيوع الحالة الرومانسية كتبت سحر مقتطفات من سيناريو حكاية أنس الوجود مع محبوبته الورد فوق الصدور لعرضها على الشاشة الفضية:

المشـهد الأول

{ليلة مقمرة. ركن قصي في حديقة أحد الملوك العظام. تدخل وردشـان متخفية وراء خمار، تتلفت حولها. ويدخل أنس الوجود من الناحية الأخرى. تقف مربيتها ترقب أي خطر آت.}

- أول مرة نتقابل يا وردشـان.
- أول مرة يا أنس.
- وحشـتيني.
- أنت واحشـني من زمان. من قبل قبل الزمان.
- عايز أشـكر ناس وحاجات كتير .. داده هنية وشـمس النهار اللي شـفتك فيه أول مرة

والشباك اللي كنت واقفة وراه يوم العرض وأمك اللي ..

- بالراحة شوية، إحنا لسه ما نعرفش حاجة عن بعض. إنت ما تعرفش حاجة عني.
- بس أعرفك يا ورد. مش لازم أعرف أشخاص وتواريخ، كفاية أبص في عسل عينيكِ .. كأني باشوف نهر صافي بميه جارية وسمك صغير شقي وعشب أخضر وحصى كأنه لآلي بره المحار.
- خيالك رومانسي. أنا مش ضد ده، أنا كمان عندي خيالي الخاص. المهم ما تخليهوش يعمي عينيك عن شكل الأرض اللي إنت واقف عليها.
- معاكِ باحس إني شجرة جذورها جوه بطن الأرض وفروعها لامسه السما، زي ما بتاخد قوتها من الطين بتاخده كمان من الشمس والهوا.

- باحبك يا أنس قد ساحة الجامع المفتوحة على قلب السما .. قد الشارع القديم بالليل فيه سبيل .. وأنفاس ناس ورا المشربية .. وصوت العود .. وطعم اللمسة .. وحضن الأهل. باحبك قد القمر وهو بدر .. بس خايفة يا أنس.
- علي ولا عليكِ.
- يمكن خايفة من حاجة برّانا. لما بالبس لبس جواري بالليل واهرب من القصر، باشوف الدنيا وباعرف .. باعرف قد إيه ناس كتير بتكدب على نفسها قبل ما تكدب على الدنيا. قابلت ناس وخذلوني، وتعبت.
- المُر اللي بيقطّر من عينيكِ، بيغير ملامحك ويخليكِ أكبر منك بسنين.
- محتاجالك بس خايفة.
- حلمت بيكِ امبارح، كنتِ مَيّه .. كنتِ مسك وكنتِ عنبر .. كنتِ شجرة مشمش بايديا بادخل في نعومة خضارها. ولما في الحلم نمت تحتها، سمعت وشوشة ورقها الناشف

جنب ودني، وصحيت وعلى خدي ورقتين، وأنتِ.

* * *

المشهد الواحد بعد المائة والأخير

{حديقة القصر. وضح النهار. تلقي الشمس أضواء ساطعة على الأشجار والأشخاص. تجري وردشان وأنس الوجود في اتجاه بعضهما البعض بشوق، يلتقيان في عناق طويل.}

- وحشني عسل عينيكِ يا ورد، عطشان.
- وحشتني روحك.
- عملتِ إيه في سنين البعاد؟
- كنت باكتبلَك كل يوم ورقة .. باتخيلك عايش معايا .. باحكيلك كل حاجة .. كل شخص وكل فكرة .. كل نبرة صوت وكل زهرة مشمش مندية بتنبت عشانا. وإنتَ؟

- اتعذبت لما بعدوني عنك. طلعت جبال ونزلت صحاري وعبرت بحور وحاربت تعالب خضر وحمر وسحرة وغيلان أشرار.
- بس نجحت، نجحت يا أنس. إزاي قدرت؟
- ما انتهاش عذابي إلا لما اتجوزت "هسيس" بنت ملك الجان، ساعتها بس ملكت القوة اللي جابت لي كنوز وقصور، دهب وأراضي وعبيد ما يتعدوش. وأقدر أشتري غيرهم كمان.
- ياه يا أنس .. هو ده اللي غبت السنين عشانه؟! تشترى الناس .. ليه يا أنس .. ليه؟
- عشان استحقك وأبقى قد أبوك الملك. مالك يا ورد، ده كان عشانك .. وحياة مَيّة عينيكِ .. وحياة دفا حضنك وتدويرة شفايفك اللى ما قدرت أنسى طعمهم.
- عايز مني إيه يا أنس؟ ده أنت حتى مش شايف إن كل واحد مننا أخد طريق عكس التاني.
- بتسألي! نتجوز يا ورد. دلوقت نقدر.

- أعيش مع نص راجل!
- باحبك يا ورد. أنا دفعت تمن غالي أوي علشانك.
- روحك يا أنس؟! مين قال إنى هارضى بالتمن ده!! مين قال إنى عايزه حياتي تبقى صندوق جواهر أشترى بيها بني آدمين. مين قال إن حياتي كلها إنت؟ باحبك آه، لكن برضه باحب زرقة البحر ونوارسه والسما .. باحب البنات اللي فتحت لهم مشغل ومدرسة. باحب دهب رمل الصحرا وخضرة الصبار ووشوش الناس الشقيانين وريحة زهر اللمون ورسمة الحبر على الورق .. وباحبني يا أنس.
- مش هيأس يا ورد.
- خللي بالك عليك يا أنس.

وفي الليلة التاسعة بعد الألف، التقطت سهى كتاب الحكايات فأعجبتها صور الحيوانات، وقرأت من بين سطورها بعض الإيحاءات عن عصفورة شهريار:

قالت شهرزاد:

جوزي شهريار عنده عصفورة دكر معششة في دماغه مغلباني ومطلعة جوز عينيّ الاتنين. العصفورة خباصة وبتوقع بيني وبينه بداعي وبدون داعي، وكمان بتسلّطه عليّ في الرايحة والجاية. وعصفورة شهريار طول النهار تكذب وتقول إنها تعرفني أكتر من معرفة نفسي بنفسي شخصيا. وكمان بتؤكد إنها مؤدبة ومتربية وبتفهم في الأصول والواجب، وإن أنا عكس كل ده. بتقول إني ماعرفش مصلحتي فين، وهي بقى حتة العصفورة دي هي اللي حتربيني من أول وجديد لأنها ما بتقولش إلا الحق، وعصفورة دكر صح الصح وأستاذة وقشطة طحن.

وعصفورة شهريار بتتأفف موت لما أكون سهرانة بأتفرج على التليفزيون، ولاّ حتى بأقرا كتاب، وتسلط شهريار - اللي على طول رامي لها ودن - إني لازم أنام بدري علشان السهر مضر على الصحة. وبتعترض كمان على شربي للقهوة وتفضل شربي للبن بالفراولة أو عصير القصب لأنهم مفيدين للجسم. وطبعا بتموت من الغيظ لو خرجت ساعتين مع صاحباتي نضحك ونغير هوا لأن الهوا ما لوش دوا.

والمذهل حقيقي إن عصفورة شهريار ساذجة جدا، فهي مثلا لا يمكن تعرف مشاعري الحقيقية أو أفكاري، كمان مش مهتمة تشوف فستاني الجديد أو النيو لوك اللي عملته بعد طلوع الروح وفوات الأوان. والأكاده فعلا إنها ما تعرفش حاجة عن تفاصيل تربية الأولاد. هي بس فالحة تقرفني وتسود عيشتي.

واحترت طبعا في العصفورة دي لحد ما قابلت أختي دنيازاد واشتكيت لها العصفورة

الملعونة، فضحكت كتير وقالت "حد يعمل عقله بعقل عصفورة. طب ده أنا بقالي تلاتين سنة بآخدها على قد عقلها. ده عقل عصافير يا بنتي."

ورجعت البيت ولبست مجرد باروكه صغيرة ونظارة شمس للتخفي، وقعدت قدام التليفزيون ومعاي فنجان قهوة كبير. بصت لي العصفورة مندهشة لأنها ما عرفتش مين أنا. فاستغليت الموقف ورحت ناحية الباب علشان أخرج مع صاحباتي. وعنها وخرج وراي شهريار "هو انتي إنتي؟ ولاّ مش إنتي؟! شهرزاد؟! رايحة فين؟!"

شاورت على الشباك في الناحية التانية، وقلت "بص العصفورة!" وقفلت الباب.

وفي الليلة العاشرة بعد الألف .. وبعدما كانت سهى قد ضحكت على عصفورة شهريار، قلبت في الصفحات حتى وجدت صورة جمل وطاووس في صفحة مطوية، ففردتها وقرأتها من سكات:

بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد أنه في الركن البعيد في الحديقة الدولية كان هناك قفص حديدي يحوي حيوانا من الحيوانات البرية، حيوان غريب كبير يشبه الجمل الأحدب وفي نفس الوقت يشبه الطاووس ذا الذيل الطويل. وأخذ هذا الحيوان يتكلم وكأنه شخصان.

قال الجمل: مالك كده يا طاووس زعلان متعوس، وزهقان مكبوس.

وقال الطاووس: أنا من شباب البشر متغاظ ومفروس، راحت فين أيام الترحال في كل يوم لبلد بعيدة من البلدان.

فقال الجمل: سيبك من كل شباب اليوم من البشر، ده عقل الواحد منهم في نظري ما يزيد عن عقل البقر.

وهنا قاطع شهريار الكلام: عمل إيه الجمل ولاّ الطاووس ده يا شهرزاد علشان يجيبوا في سيرة البشر، دي حتى حيوانات غبية ملهاش أي صفة ذكية.

شهرزاد: بس يا مولاي ما تقولش حيوانات، دا راجل صاحب نفوذ وكان نصيبه من الدنيا قرطة ستات. حَسن، وحُسن الملامح والشكل كانت صفة من الصفات، وكانوا كل ما يجوزوه واحدة من الفتيات لا يطلع عليها نهار ولا في فراشها تبات.

شهريار: غريبة أوي الحكاية دي يا شهرزاد، بس بالراحة عليّ علشان استوعب حكاية الحيوانات ديّ.

شهرزاد: يحكي أنه كان هناك شاب مفتول العضلات سحرته عفريتة من عفاريت الحمامات

بعد أن دخل الحمام لكي يقضي حاجته فوجد العفريتة بمفردها، فاستفرد بها اللعين قبل أن تستغيث أو حتى تطلب البوليس. فسحرته جملا ذا سنم ضخم وطاووسا مفتونا بجماله وجعلت من الاثنين حيوانا واحدا.

شهريار: ما هذه التوليفة يا شهرزاد؟

شهرزاد: الجمل من أجل الصبر يا مولاي، فقد كان حسن مفتونا بجماله، سريع الهوى، لا يقوى على الصبر على أية من بنات حوّا. أما الطاووس فهو لإعجابه بنفسه وغروره. سحرته العفريتة حيوانا لا على الكلام يقدر ولا حتى عن أفكاره يعبر..

وهنا قاطع شهريار الكلام: وعمل إيه الجمل في خيبته القوية. هو لازم يعمل جدع على عفريتة وليّة. وفي الحمام كمان؟ حاجة تقرف ما فيش كلام.

قالت شهرزاد: المشكلة يا مولاي أن الجمل إبن الناس وحيد أبوه وكلامه يمشي على رقاب العباد. ومن حزن أبوه عليه قرر يجوزه أحلى بنات الزمان،

وزي ما قلت لك أول ما طلع عليها الفجر يدوّروا عليها وما يلاقوا لها وجود ولا حتى أثر.

قال شهريار: قولي لي يا شهرزاد هو ما كانش فيه في البيت شخص آخر مسحور؟ أو بني آدم إسمه مسرور؟

قالت شهرزاد: أبدا يا مولاي. كان الجمل إما بفلوس أبوه أو بجماله الساحر أجمل الفتيان. المهم كان كل واحدة يتجوزها تختفي .. تختفي لغاية لما قابل ست الحسن والجمال.

قال شهريار: عملت إيه ست الحسن والجمال؟

قالت شهرزاد: بكت يوم ما عرفت نصيبها واستدعت عفريتة الحمامات اللي وعّتها وشرحت لها وفهمتها كل حاجة. لا تستغيثي أو تنادي علشان حد يلحقك.

فقالت ست الحسن: أمال أعمل إيه؟

قالت العفريتة: أنا مش حأقولك تعملي إيه. إتصرفي.

ووجدت سهام بنت سنية وعبد السلام أن شهرزاد قد ارتحلت في الزمان والمكان بحثا عن الحكايات، فسألتها "ألم تأت إلى بلدنا أم الدنيا يا شهرزاد؟" فردت شهرزاد "بلى، أتيت، لكن لياليّ مع شهريار لم تتسع لحكاية 'سلطان الهوى'. وفي إحدى ليالي السمر، باحت المصرية سهام بالحكاية لصديقاتها فقالت:

بلغني أيتها الصديقات.. أن هاتور الصغيرة سألت مربيتها يوما: هل الحب مباح؟

قالت المربية: هو محرم و مباح.

قالت هاتور: كيف يجتمع الضدان؟!!.

قالت المربية: ما على القلوب إلا الهوى سلطان .. لكن اعلمي يا بنيتي أن سلاطين العروش دأبوا على مطاردة سلطان الهوى .. فما يبيحه مالك القلب يحرمه مالك العرش. و الحرب بينهما سجال.

لذلك قالت الشاعرة:

الفرض في شرع الهوى كتم الهوى

لا ترفعوا المسبول من أستارنا*

وإني يا طفلتي أراك وقد أدركت الشوق إلى الهوى .. ومثلك لن تلبث حتى تُرمى بسهامه .. فَع دروس جداتنا .. ولا توردي نفسك موارد الهلاك.

قالت هاتور: إني حقا لم ألق الهوى بعد، لكني لا أحسبه هلاكا .. إن شوقي له شوق للحياة .. فلماذا أكتم أنفاس الحياة إذا ترددت في صدري؟

قالت المربية العجوز: ما حيلتي يا ربي في طيش البنات؟!! .. الزمي العقل يا هاتور .. وقومي إلى زهورك فارويها، وإلى طيورك فأطعميها .. وحذار أن يبلغ ما قلته الآن .. آذان السلطان.

فلما كان الصباح التالي .. انشغلت هاتور بنسج طوق من براعم الزهر وأكمام الورود، وهي

---

* ورد هذا البيت من الشعر على لسان ورد الأكمام، وقد خطته لمحبوبها أنس الوجود. من قصة "حكاية أنس الوجود مع محبوبته الورد في الأكمام" في كتاب **ألف ليلة و ليلة**، في الليلة السبعين بعد المائة الثالثة.

تلقي نظرة بين الفينة والفينة من الكوة على الصبيان الملاح وهم يروحون ويغدون في الحقول، وقد نكسوا رؤوسهم حتى لا يشغلهم عن الأرض شاغل، وهم يفلحونها بالفئوس و المناجل.

شعرت هاتور بقوة غامضة تشدها إلى فتى وسيم - لم تكن تعلم بعد أنه أوزير، الذي تغنت بحسنه المزامير - فسددت نحوه عينيها وقلبها يناديه.

أما عن أوزير الذي أسر لب هاتور، فقد كان مضرب الأمثال في الوسامة والقسامة. لا يعرف أحد أصله و لا نسبه. قيل إنه ولد من أب بلا أم، بل قيل إن السلطان هو والده. لكن الأمر الأكيد، أن حدث منذ بضعة وعشرة أعوام، أن السلطان أعلن رغبته في الخروج للبرية بمفرده، ورفض اصطحاب حاشيته وندمائه كما اعتاد. ولما عاد، كان يحمل لفافة بها طفل ذكر، كأنه فلقة القمر. وقال السلطان أنه قد وجد الوليد في جب مهجور، وسمع من بعض الرعاة أن أخوة له قد ألقوه في

الجب وفروا، وقال آخرون، بل هو أخ واحد، وجد على المولود ضوء الجمال الذي يشع من جبينه، فدبر مكيدة انتزعه بها من مهده وألقاه في الجب.

تعهد السلطان برعاية الطفل الصغير، وأسماه أوزير، وعهد به إلى المعلمين والحكماء، حتى أتقن علوم الأرض والسماء. وأراد السلطان لأوزير أن يرقب الحياة عن كثب، فلم يجد له معلما في هذا المضمار خيرا من الزراعة، حيث يتاح للمرء أن يرقب الميلاد والنمو، وحيث لا يكون الموت فناء كما في ساحات الحروب، بل إيذانا ببعث جديد.

وفجأة، عَنَّ للفتى أوزير أن ينزع عينيه من العشب والحصى، ويتطلع نحو السماء، لعل وعسى. فما أن فعل حتى غشيه ضوء شديد ظنه الشمس. فنكس الرأس مرة أخرى .. لكنه لم يلبث أن جرؤ على معاودة النظر، فرأى هاتور البهية .. شقيقة القمر.

فرحت هاتور بما فعلت .. وزادت عليه أن رمت إلى أوزير طوق البراعم الفواح .. وأنشدت من مقام الأفراح:

تهواك هاتور الوحيدة يا فتى

وزهورها مرسال حب قد ولد

فضم أوزير الورد إلى صدره، وأرسل إليها قبلة في الهواء، ورد عليها بغناء، من مقام السعد الهناء:

أوزير يهديك المحبة والهوى

وهدية المحبوب كنز لا يرد

أما وقد وقع ما قالت المربية إنه المحظور، وما يراه العاشقان من حسن الأمور .. فقد تواعدا على اللقاء في الغد، وانصرف كل منهما إلى مشاغل حياته على هذا الوعد.

ولما كان للحيطان آذان .. فقد بلغ أمرهما مسامع السلطان. غضب السلطان على هاتور وأوزير، وقال: لقد استولدت الجب فأولدني أوزير،

والجب الذي يلد يمكن أن يئد، ولا حل لوأد هذه الفتنة في مهدها إلا بإرسال هاتور إلى الجب المسحور، فيبتعد العاشقان لفترة من الزمان تكفل لهما الشفاء والنسيان. ونفذ السلطان إرادته، فحمل جنوده هاتور إلى منفاها، وأوصدوا جميع أبواب القصر دون فتاها.

وقد بلغني أيتها الرفيقات العزيزات .. أن أوزير لما أفاق من نومه توجه إلى القصر، وطاف به سبع مرات يدق الأبواب وينادي، حتى أنهكت قواه. تحسس أوزير الجدار المصمت، ثم جلس بجوار جدران قصر هاتور وقد شفه الوجد، وفاضت عيناه بدمع الرجاء الخائب، فتحسس طوق الزهر حول عنقه و أنشد:

هاتور يا محبوبتي ..

أهديتني أكمام ورد غافل ..

فتفتحت عبَقا بأحلامي

وإذ الصباح انشق عن نور شفيف

اهتز قلبي بالنداء يشدني
وإليك يا روح الحياة حملت روحي
طائرا فوق المروج المزهرة
لكن .. وآه يا حبيبة مهجتي
صد الجدار تدفقي
فوقفت أصرخ ..
ها ذا أنا .. هيا افتحوا ..
ولكن لا مجيب.
هاتور يا محبوبتي
ها قد أتيت إليك .. لكن .. أين أنت!!؟

أما ما كان من أمر هاتور فور أن علمت بقرار السلطان بنفيها إلى الجب المسحور .. أنها أطلت خلسة من كوة في برج القصر، وصورت خارجها على الجدار برعما يصعب أن تدركه الأبصار حتى في وضح النهار. وقالت لمربيتها وكاتمة سرها: "يا مربيتي العجوز المخلصة .. أعرف أن أكمام الورد قد حملت رسالتي إلى أوزير، وستظل رسولي

لديه ما دام في صدري نفس يتردد، وأنه سيلبي ندائي .. ولن أخذله، ولن يخذلني. ثم طافت بزهورها تقبلها وتودعها، فنثرت الشجيرات دموعها زهرا نديا، غطى ثوب هاتور، فكأنها تسربلت بالزهور، وأهدتها كل شجيرة بعض البذور. وغادرت هاتور وطنها وهي على هذا الحال، الذي تؤمن أن دوامه محال.

ولما وصل بها الجنود إلى الجب أنزلوها فيه، وأدلوا إليها بكل ما لذ وطاب من طعام وشراب، ثم سحبوا حبالهم وعادوا أدراجهم. فحصت هاتور الجب فوجدته عميق الغور، لا أمل لها في الخروج منه. حاولت هاتور أن تصرخ، لكن الجب المسحور كتم صرخاتها .. حتى عن سمعها. ولما استبد بها القهر واليأس، أخذت تنشد السلوى في زرع البذور التي جلبتها معها، وترويها بدموعها. ومع كل دمعة تذرفها تجف قطرة ندى من على الزهور التي تغطي ثوبها وتلد إحدى البذور عود زهر، ويطير الندى مع أنفاس الزهر الوليد من فوهة

الجب ناشرين في الجو عبيرا خفيفا ذا عبق مميز. وبعد أن جف من هاتور الدمع بعد طول نحيب، وأدركت أن الفرج ليس بقريب، وطنت نفسها على طول المقام في منفاها، فعكفت على نسج أطواق زهور تذكرها بأوزير. وكلما فرغت من طوق وصلت به طوقا جديدا، حتى صارت لديها سلسلة طويلة من أطواق الزهر، تراكمت فوقها، وعلت حتى قاربت فوهة الجب.

أما أوزير الذي ذهبت صرخاته أدراج الرياح فقد صمت وظل يدور أياما حول جدران القصر الملساء .. يتحسسها .. ثم أخذ يحفر في أحجارها بأظافره، حتى امتلأ الجدار بكوى صغيرة، لم تمكنه من النفاذ للداخل، لكنها أتاحت له تسلق الجدار، حتى وصل إلى قمة برج القصر، ورأى صورة البرعم.

حيا الأمل في نفس أوزير، فهبط من البرج، وتحسس طوق البراعم الذي نسجته له هاتور. وما أن مست قدماه الأرض حتى انطلق يركض،

ويعب من النسيم العطر ملء صدره، باحثا عن العبق الذي تضفيه أصابع هاتور على كل ما تمسه، والذي لا يضاهيه عبق ما في الأرض جميعا من زهور. وما أن حدد الجهة التي تأتيه منها الرائحة الذكية حتى مضى في طريقه بدأب، حتى وصل بعد طول ترحال إلى الجب.

هتف أوزير باسم هاتور فلم يتلق ردا، فلعنة الجب تغلق على المنفيين فيه سبل السمع والإبصار. طارت نفس أوزير هلعا، وظن أن محبوبته قد هلكت، لكنه عندما نظر داخل الجب، رأى سلاسل الزهور على بعد ذراع من فوهته. مد أوزير يده وأخذ يسحب حلقات الزهور، حتى أحست هاتور بشيء يجذب نهاية السلسلة التي في يدها، فتشبثت بها، وإذا بها تنجذب هي الأخرى خارجة من الجب.

تعانق الحبيبان، وجاهدت هاتور لتنطق اسم محبوبها بعد أن أنساها طول الصمت الكلام. ومع كل ضمة حانية كانت هاتور تنطق حرفا " أو-زي-ر"

وتبصر شعاعا من الضوء، حتى استوت بكامل بهائها المعهود.

عاد الحبيبان إلى وطنهما، لا يعكر صفوهما إلا الخوف من السلطان. لكنهما حين اقتربا من القصر سمعا جلبة غير معتادة، وحين صار على مرمى أبصارهما، رأيا الكوى التي حفرها أوزير وقد اتسعت حتى صارت فجوات، يخرج ويدخل منها صبيان وبنات يشيعون في أرجاء المكان بهجة الغناء و الضحكات.

وما إن لمح الجمع السعيد أوزير وهاتور حتى أحاطوا بهما مهنئين ومعابثين، وحكوا لهما كيف كان قلب كل فتى من المزارعين ينبض بحب فتاة من حبيسات القصر، ولم يكن منهم أو منهن من يجرؤ على البوح خوفا من السلطان، حتى بلغهم نبأ أوزير وهاتور، ورأوا الكوى الصغيرة في السور، فتجرءوا على التجمع وتوسيع الكوى، فأخذ الفتيان في الحفر من الخارج، والفتيات من الداخل.

وكلما اتسعت فجوة لمرور حبيبين، يتجمد حارس أو فارس من حرس السلطان ويصدأ سيفه. أما السلطان فقد فر بحثا عن أرض لم تبلغها أنباء انتصار سلطان الهوى على سلطان العرش.

وفي الليلة الثالثة عشرة بعد الألف تذكرت الرفيقات كتاب الليالي الألف، فحكت منى لرفيقاتها حكاية "درة الأوطان" ابنة شهرزاد:

أتت شهرزاد إلى الملك بأولادها الثلاثة قمر الزمان وفرط الرمان وأختهما درة الأوطان، وقالت: يا ملك الزمان هؤلاء أولادك، وقد تمنيت عليك أن تكف عن تهديدي بالقتل إكراماً لهؤلاء الأطفال .. حتى أشعر بالأمان.

فدهش الملك وقال: عجباً يا شهرزاد، أتظنين أن أقتلك بعد أن عرفتك امرأة من فضليات مخلوقات الرحمن، ذات عقل راجح وذكاء وفطنة يشيب لها الولدان .. هذا بالإضافة لفيض حنان وحسن لسان. وللحق لم يكن هناك داع لاستعطافي بحق هؤلاء الأطفال .. فقد جعلت مني إنساناً رقيق القلب، لا يجرؤ على القسوة مع طير أو حيوان أو إنسان.

فابتسمت شهرزاد وقالت: لقد عرفت هذا يا مولاي .. إنما أردت أن أسمعه منك كمقدمة لطلب

آخر أرجو أن تلبي لي إياه، إن كنت حقاً تحمل لي في قلبك ما شرفتني بذكره الآن.

فقال الملك: تفضلي يا شهرزاد، وسوف يكون لك ما أردت إن شاء الله.

قالت: أتمنى عليك يا مولاي أن تمنح ابنتنا درة الأوطان شرف ولاية عهدك وحكم البلاد من بعدك.

فقال الملك منزعجاً: ولكن هذا مستحيل.

فردت شهرزاد بلهجة مستعطفة: ولم يا مولاي؟ إنها الطريقة الوحيدة التي تثبت بها حسن نواياك تجاه رعاياك من النساء، وتكفر عما سببته لهن من عذاب وشعور بالرعب الدائم وانعدام الأمان.

شهريار: دعيني أفكر إذن في هذا الأمر، وسأوافيك بما أرى في غضون أيام.

فردت شهرزاد غاضبة: لك هذا يا مولاي، ولي أن أذهب إلى بيت أبي الوزير لعدة أيام، حتى أرى أنا أيضاً أمراً فيما أود عمله بحياتي في قادم الأيام.

فقال شهريار بلهجة آمرة: بل ستبقين هنا في قصري، فلن آذن لك بالرحيل.

شـهرزاد: وإذا عصيت الأمر .. ماذا ستفعل بي؟ أتقتلني؟ حسناً .. فقد انتظرت هذا القرار لألف يوم وليلة ولن يضيرني أن تصدره الآن.

شـهريار باستعطاف: ولكن يا شـهرزاد تعلمين أنه لا يمكنني الاستغناء عنك.

شـهرزاد: لماذا؟ ألأجل حكاياتي؟ فلتعلم إذن أنه لم يعد لدي المزيد.

شـهريار: بل من أجلك أنت .. أنا أحبك يا شـهرزاد.

شـهرزاد بصوت هادئ مقنع: فلماذا لا تلبي طلبي الوحيد إذن؟ إنها أيضاً ابنتك الوحيدة، وسوف يتحاكى الناس إذا وليتها بأنك أول من ولى عهده امرأة بدلاً من ذكر اسمك مقروناً فقط بقتل الآلاف من النساء.

شـهريار: أعرف أنني لن أحر معك جواباً .. لك ما تريدين يا شـهرزاد، فلنولّ درة الأوطان في عيد ميلادها القادم وَليّة عهدي وأميرة للبلاد.

فتقبّله شـهرزاد ودموع الفرح في عينيها تترقرق.

والتقطت مها الكتاب، فوجدت صفحات بيضاء لا توجد فيها حكايات .. سكتت شهرزاد:

لم يعد لدي حكايات أحكيها عن الزمان
لم تعد هناك مغامرات وحكاوي بطلات
لقد أصمتني ضوضاء المدينة
وحجبت رؤيتي أدخنتها السوداء
لقد تاهت مني نفسي
وابتلعت الكلمات
في وسط الزحام
أصبحت صحراء جرداء
لم يعد النيل يروي لي حكايات
ولم يعد النخل يهمس لي عند المساء
لم يعد سوى صراخ
يبتذل الكلمات

اليوم يا شهريار
لقد حان الأوان

لتحكي لي حكاية عن هذا الزمان
لطالما حكيت لك حكايات
حكيت لك عن الموت والحياة
وعن الفرح والأهوال
وعن الحب والاشتياق
حكيت لك عن أسرار الأشياء

اليوم يا شهريار
أريدك أن تحكي لي
حكاية غير كل الحكايات
حكاية كحكايات أمي
تحتضنني في عالم الدهشة والخيال
كألحان الناي تجعل قلبي يرقص بامتنان
كشمس مصر أيام الشتاء
حكاية تعيد تعريف المفردات
حكاية تريني بهجة الحياة
حكاية تميزني وسط الزحام

حكاية عني وعنك
تبدأ بكان يا ما كان
وتنتهي بتبات ونبات

وإن لم تستطع
فليأت مسرور
وبسيف الصمت
ينهي الحياة.

وفي بداية الليلة التالية وبينما الصديقات ملتفات لسماع الحكايات، نظرت منيرة من الشباك فوجدت نجمة شهرزاد التي ذكّرتها بيوم مولد البنات:

عندما ولدت ليلى جاءت عمتها لتحملها وتسمي عليها وتؤذن في أذنيها. وكما هي العادة لكل مولود جديد هدية. وتمر الأيام والسنين وعادة ما يتشكل الصغار بهدايا الكبار، فتكبر ياسمين ويظل بريق الذهب أكثر ما يشد انتباهها، وتكبر نورا لتبهرها دائما ألوان الملابس الزاهية، وتكبر هالة لتكوّن من الحروف والكلمات والكتب عالمها السحري. أما ليلى فقد أعطتها عمتها علبة صغيرة، ما إن فتحتها أمها حتى خرجت منها نجمة فضية براقة واستقرت فوق كتف ليلى الأيمن. واستغرب الجميع لتلك النجمة التي تتحرك وتتبع خطوات صاحبتها. وكبرت ليلى واستمرت تلك

النجمة تتبعها إلى كل مكان تذهب إليه لتستقر دائما فوق كتفها الأيمن.

في المدرسة كانت المدرسات والصديقات يسألن ليلى عن تلك النجمة، وكن يستغربن أكثر من الجواب "نجمتي مثل نجماتكن تماما"، ولا يفهمن الجواب، فهن لا يملكن أية نجمات. وفي كثير من الأحيان كن يغضبن من ليلى لما يرينه من استخفاف وسخرية بهن. وفي العمل عندما يسمع الزملاء جواب ليلى يضحك الجميع ويهمس البعض بقليل من الشفقة وعلامات تدل على إيمان الجميع بأن ليلى تعيش في عالمها الوهمي.

والحقيقة أن ليلى لم تكن تستشعر اختلافها عن الآخرين ولم تكن تدري السبب وراء تباين ردود أفعالهم. وعندما تزوجت ليلى كان أكثر ما شد انتباها إلى زوجها إنه لم يسألها عن تلك النجمة المستقرة فوق كتفها ولم يبد أي استغراب حينما كانت تسأله عن نجمته حين كانت تخبو

أحياناً، فكان دوماً يهز رأسه ويتمتم ببعض الكلمات غير المفهومه ويستكمل ما كان يؤديه.

وحينما رزقت ليلى بابنتها ندى جاءت عمتها كعادتها لتحملها وتسمي عليها وتؤذن في أذنيها. وعندما أعطتها العلبة وبداخلها النجمة ابتسمت ليلى وهي ترى النجمة تستقر فوق كتف ابنتها الأيمن ونظرت إلى زوجها تشد انتباهه وهي تشير إلى النجمة. ولكنه فجأة وبكلمات واضحة قال لها: "النجوم لا تسقط من السماء."

وفي منتصف الليلة، أخذت هالة غفوة قصيرة ما إن أفاقت منها حتى حكت عن حلمها:

لم أحلم أبدا بقصر وأمير .. بل كنت أحمل داخلي حلما بجنيّة أصادقها فأتجاوز حدود الجدران الإسمنتية وقفصا أختبئ فيه طواعية من البشر. وحين أستلقي على سريري وأغلق عيني، أتحسس بقدمي نعومة الفراش وتمتد ذراعاي في حالة طيران .. فتتحول وسادتي إلى سحابة قطنية وأحلق في سماء الحلم.

مفتاح

ويوم عصفت الريح بالبلاد وتفرقت الدروب بالبشر الهاربين من الرعد والصواعق، خرجت أبحث عن شعاع شمس ثائر على الظلام .. وحين حلقت في المدينة قادتني جناحاي إلى عش أعلى شجرة نارية الأوراق، تسكنها جنية منحتني

مفتاحا سحريا أفتح به كل الأبواب .. فحملت المفتاح تعويذة تذكرني بقدرتي الدفينة على حل رموز الأقفال.

شروق

لم أحلم أبدا بقصر وأمير .. بل صنعت حلما متجددا من عش وجنّية .. وحين تعصف بالكون الرياح أركن إلى العش فتحتضنني الأوراق النارية .. وفي وحدتي حين تتلبد سماء حياتي بالغيوم الحجرية، أتلمس مفتاحي الأثيري فأنطلق محلقة في السماء، أستدعي الجنية وأشهد شروق يوم جديد.

قالت الراويات ..

ما لم تقله شهرزاد

دخلت البنات جميع الحجرات في
القصر العتيق يتفحصن المكان ويتأملن
سحر الزمان، وما أن وجدن المجلد
القديم وعرفن من المخطوط أنه مجموعة
حكايات كتبتها زماان شهرزاد، حتى
جلسن جميعا في حلقات يسمعن
حواديت الجدات، فحلمن بها وهمسن
في أذن جميع الصديقات وكتبن من
وحيها هذه الحكايات ..
فقالت الراويات ما لم تقله شهرزاد.

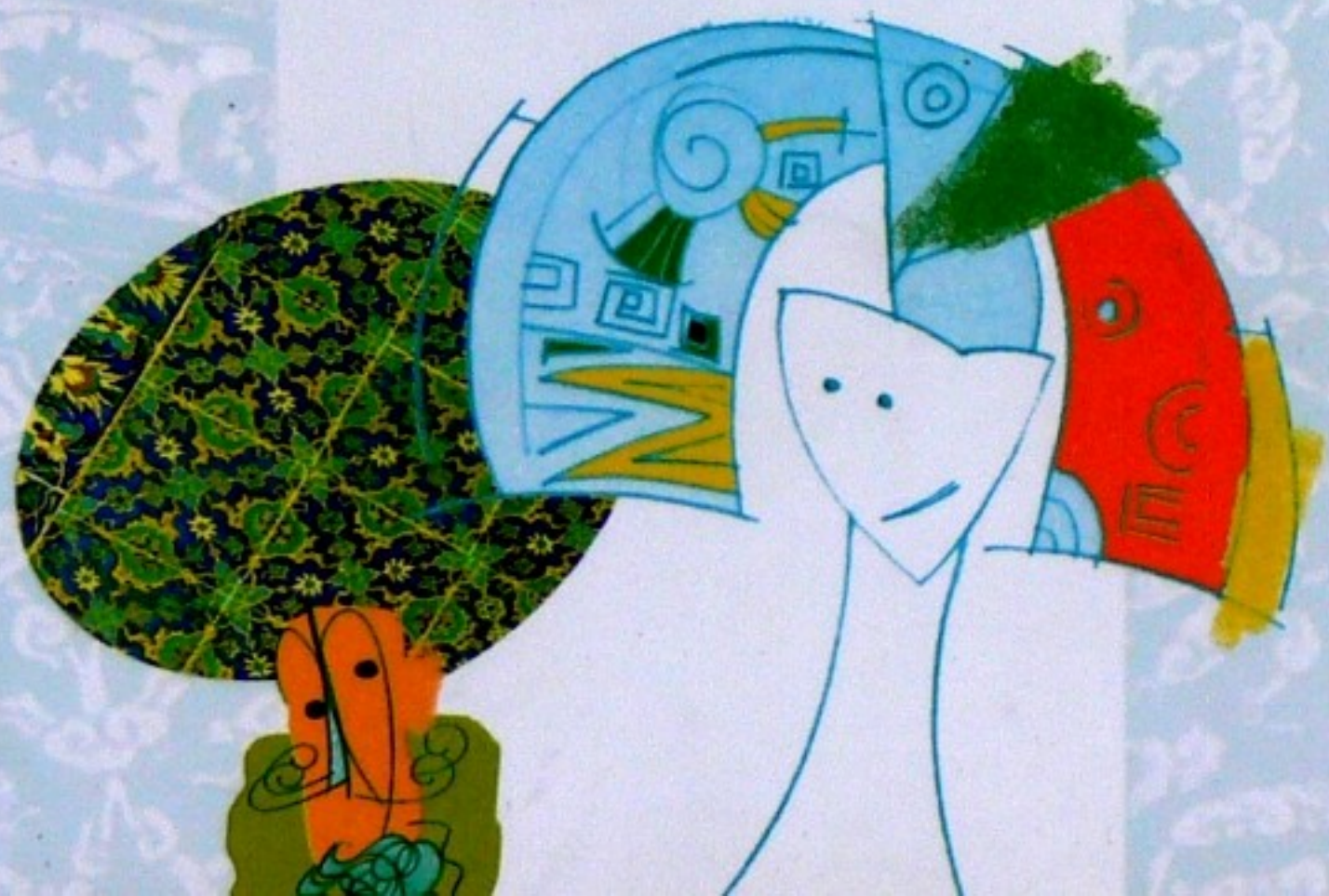

المؤسسة المرأة والذاكرة
THE WOMEN AND MEMORY FORUM